الأديب عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني

أ.د.قحطان رشيد صالح

كلية المأمون الجامعة

المستخلص

يهدف هذا البحث إلى التعريف بعلم بارز من أعلام الأدب واللغة والبلاغة والتاريخ في القرن الثامن الهجري. أديب يمني لامع سمت به نفسه إلى طلب العلوم من مظانها والاحتواء عليها في إبانها.وقد تمثلت مناهله الثقافية بفيض من القرآن الكريم والتراث العربي الإسلامي:شعرا ونثرا وأمثالا.أثنى عليه الكثيرون من المؤرخين والدارسين ثناء حسنا.إذ أسهم بعطائه الجم المتنوع في رفد المكتبة العربية وإغنائها.فضلاعن قيامه بالتدريس هنا وهناك من المواطن العربية ، فكان علامة مضيئة في مسيرة العطاء الفكري في العصر الوسيط ، بما خلفه من نصوص شعرية و رسائل ديوانية وأدبية ومناظرات نثرية، بوأته المكانة الأثيرة بين الأدباء والمؤرخين واللغويين.

المبحث الأول

النشأة والسيرة

اسمه:هوالقاضي الأديب أبو المحاسن تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله بن مثنى بن احمد بن محمد اليماني المخزومي(١).ويبدو أن رحلاته بين مكة والشام والقدس ومصر، تقف وراء تلقيبه باليماني لتمييزه من غيره من أدباء هذه الديار.وقد يلقبه آخرون بالقرشي لأن قومه بني مخزوم قرشيون(٢) . مولده: ولدفي شهر رجب من سنة ٦٨٠هجرية بمكة المكرمة وقيل ٦٨٥هجرية(٣).وهناك من يذهب إلى أن ولادته كانت في عدن(٤).وأن نشأته كانت حيث ولد، ثم انتقل إلى مكة المكرمة بصحبة والده وأقام بها ثماني سنوات، ثم عاد إلى اليمن.وكان كثير التنقل بين المواطن العربية طلبا للعلم،وسعيا وراء العمل اللائق. ترك اليمن

إلى الديار المصرية سنة٧٠٤هجرية بعد أن خاب أمله في تولي كتابة الإنشاء في الديوان السلطاني بسبب معارضة منافسيه، وإذ لم يتفق له ذلك رحل وهو ينشد قول الشاعر(٥) :

أيا ماء العذيب وأنت عذب تعرض دونك الماء الوخيم

ثم رحل عنها إلى الشام حيث درس في دمشق العروض والمقامات،وعاد ثانية إلى اليمن ليتولى منصب كاتب الديوان سنة ٧١٧هجرية (٦) ، ثم تضطره التقلبات السياسية إلى الخروج إلى مكة المكرمة ، ومن هناك إلى مصر عام ٧٣٠هجرية ، وقد تردد بينها وبين بلاد الشام وبين القدس، ليعود ثانية إلى بلاد الشام سنة٧٤١هجرية.وانتقل الى القاهرة من جديد حتى وفاته(٧).

مكانته الاجتماعية والعلمية :

اعتلى ابن عبد المجيد مكانة أثيرة لدى المؤرخين وكتاب السير والتراجم.وقد أثنى هؤلاء عليه ثناء حميدا،وأشاروا إلى بعض صفاته،من ذلك قول ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات:"كان شيخا طوالا،حسن الشكل والعمة،حلو الوجه،قادرا على النظم والنثر،وكان ضنينا بنفسه، يعيب كلام القاضي الفاضل وغيره،ويظن أن كلامه خير من كلام الفاضل...وكان خطه جيدا قويا،وكان يعظم نفسه ويمدحها،ولكلامه وقع في النفوس إذا أطنب في وصف فضائله."(٨).وكان ابن حجر العسقلاني من المعجبين بنظمه ونثره(٩).وعنه يقول الصفدي:"كان حسن المحاضرة جميل الهيأة لاتمل مجالسته(١٠)".وفيه يقول الإمام الفاسي:"كان ذا مكارم ومعرفة بفنون العلم (١١).ويصفه ابن العماد بأنه"الإمام الأديب البارع(١٢).ومن ثناء تلميذه البرزالي عنه قوله:"كان من أعيان العرب الفضلاء ،له النظم والنثر والخطب البليغة...(١٣).وفيه يقول مواطنه أبو الحسن الخزرجي:"كان أوحد عصره،وفريد دهره:فصاحة وفضلا وسؤددا ونبلا(١٤)"،فضلا عن أن الخزرجي كان يوثقه ويروي عنه أحداثا إدارية وسياسية في سنوات متعاقبة من حكم الرسوليين(١٥).وكان إعجاب النويري به كبيرا،مما جعله يطنب في ذكر محامده ومؤهلاته ومكانته فيقول عنه:"المولى الفاضل،الصدر الكبير الكامل البارع الأصيل،الأوحد النبيل...هوالذي أتقن صناعة الأدب في عزة شبابه، وبرز على من اكتهل في طلبها،وشاب في الترقي إلى رتبها،فما ظنك بأترابه؟جارى ذوي الفضل في الأقطار اليمنية فطلع مجلي الحلبة،وبارى نجباء الأفاضل بالمملكة التعزية...فارق الأقطار اليمنية وهي تسأله التأني،وتبذل لرضاه الرغبة والتمني ،والتحق بالديار المصرية(١٦)".والذي تقدم يظهر المكانة الرفيعة التي بلغها تاج الدين في موطنه اليمن،فقدكان من العاملين في دواوين الدولة ،متصديا لكتابة الرسائل الرسمية مرة،ومحترفا الكتابة خارج هذه الدواوين في مجال كتابة الرسائل الأدبية مرة ثانية،ومنصرفا للتأليف والتصنيف مرة ثالثة،متبوئا مكانته العلمية من حركة التأليف في عصره.

شيوخه :

ومن أشهر الشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم عبد الباقي أثناء رحلاته هنا وهناك هم(١٧):

١-الإمام الدمياطي في مصر. ٢-الإمام أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي في مصر كذلك.

٣-الإمام عزالدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم في مكة.

٤-الإمام احمد بن إبراهيم بن الزبير العاصمي .

٥-المولوي الفاضلي السعدي.وهو الذي أشار على عبد الباقي بتأليف كتابه (المقدمة السعدية في ضوابط العربية)كما ذكر ذلك المؤلف في هذا الكتاب.

تلاميذه(١٨):

وقد مرت الإشارة إلى تفوقه في علوم العربية المختلفة، وتصدره مجالس التدريس في أكثر من مكان، فكثر مريدوه وتلاميذه، ولعل من أشهرهم:

١-الإمام المظهر بن محمد اليمني الصعدي ٢-الإمام شمس الدين محمد بن احمد الذهبي

٣-الإمام القاسم بن محمد البرزالي ٤-الإمام محمد السروجي

٥-الإمام يوسف بن سليمان... وغيرهم .

مؤلفاته :

أثرى عبد الباقي المكتبة العربية بألوان من فنون الأدب واللغة والبلاغة والتاريخ والعروض ،وكانت موضع عناية الباحثين والمحققين والدارسين،ومن أشهرها(١٩):

١-إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين وقد نشر سنة ١٩٨٦م بتحقيق عبد المجيد ذياب .

٢-الاكتفاء في شرح ألفاظ الشفاء وقيل أنه ضبط ألفاظ الشفاء للقاضي عياض.

٣-بهجة الزمن في تاريخ اليمن . وقد نشر مرارا من قبل:مصطفى حجازي وعبد الله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني.ويذكر النويري أن عبد الباقي نقل بعض مواد هذا الكتاب من كتاب (المفيد في أخبار صنعاء وزبيد)لعمارة اليمني.(٢٠)

٤-الترجمان عن غريب القرآن.تحقيق موسى بن سليمان .

٥-زهر الجنان في المفاخرة بين القنديل والشمعدان .

٦-لقطة العجلان في تذييل ابن خلكان. وهو مختصر لم يبلغ به ثلاثين رجلا، ويقول السخاوي في كتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ):"اختصر الأصل التاج عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني وسماه (لقطة العجلان الملخص من وفيات الأعيان (٢١))".

٧-لقطة العجلان في علوم البيان .

٨-مختصر معجم الصحاح للإمام الجوهري.

٩-مطرب السمع في حديث أم زرع .

١٠-المقدمة السعدية في ضوابط العربية .ويتناول هذا الكتاب مسألة الاحتجاج بالقراءات القرآنية، وموقف العلماء من الاحتجاج بالحديث النبوي، ومواضع الاستشهاد بهما وبالشعر والأمثال ،مع الإشارة إلى القبائل المعتمد عليها في مواطن الفصاحة.

ونقف عند كتابه (لقطة العجلان في علوم البيان)الذي يعده بعض الباحثين المحدثين من ضمن كتبه ومصنفاته،لنتبين مدى اهتمامه بعلوم البلاغة حتى قال فيه النويري:"سما إلى سماء البلاغة فكان نجمها الزاهر،وارتقى إلى أفلاك البراعة فكان نيرها الباهر(٢٢)"وفي هذا الثناء إشارة واضحة إلى مكانة عبد الباقي في هذا العلم الدقيق،وكان الإمام السيوطي من الذين نوهوا بمعارفه البلاغية وبعض آرائه فيها.ولو كان بين أيدينا مصنَف له في مادة البلاغة وعلومها،لكنا عرفنا عن قرب مستوى هذا العطاء ،ومدى إسهامه في العرض البلاغي المشفوع بالتحليل والتعليل والشاهد والنقد.فالسيوطي في كتابه(شرح عقود الجمان في نظم علوم المعاني والبديع والبيان(٢٣))ينص على أن الكثير ممن ألفوا في علم البديع، لم يذكروا الفرق بين نوعين من أنواع البديع،وهما:التكميل والاحتراس،ثم يورد رأي عبد الباقي في هذا الامرإذ قال :"لايكاد البديعيون يحررون ثلاثة أشياء:التتميم والتكميل والاحتراس لتداخلها،فهو يذهب إلى أن التتميم ثلاثة أنواع،الأول:تتميم الكلام للمبالغة-أي بلوغ المعنى أقصى غايته-كما في قوله تعالى:"اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا(٢٤)"والثاني:التتميم لغرض الصيانة من الخطأ(أوالتقصير)وهو ما يسمى بالاحتراس كقول طرفة بن العبد(٢٥):

فسقى ديارك -غير مفسدها- صوب الربيع وديمة تهمي

فقد يكون من نتائج السقي الخراب فدفع ذلك بقوله:"غير مفسدها" والثالث : تتميم لغرض إقامة الوزن الشعري كقول المتنبي(٢٦) :

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل مافيها – وحاشاك – فانيا

وهو يفسر الاحتراس:بأن يؤتى بمدح أوغيره بكلام ،للانتقاد فيه مجال،فيحترس من ذلك بكلام آخر،وقد فصل القول في ذلك ،موضحا حدود الاحتراس بمجموعة من الشواهد الشعرية.فضلا عن حديثه عن الإيضاح الذي يؤتى به لإزالة لبس التوجيه.ويلاحظ أن بعض البلاغيين الذين سبقوه-كابن رشيق القيرواني-تناولوا التتميم وبعض ألوانه، ولكن ليس بهذا الشكل المفصل مستشهدين بأمثلة غير أمثلته(٢٧). إن اهتمام أديب ومؤرخ وعالم كبير كالسيوطي ، بآراء عبد الباقي البلاغية ،تدل على مكانة هذا الرجل وشهرته في الدرس البلاغي. وقد ذهب السيوطي إلى أن عبد الباقي اليماني هو واحد من البلاغيين الذين أظهروا الفرق الدقيق بين الإيضاح والتفسير، بما جاء به من شواهد في هذا الموضوع.وهذا الذي تقدم هو الذي دفعنا إلى الوقوف عنده بلاغيا في حدود المادة العلمية التي توافرت لدينا في هذا المجال(٢٨).

وفاته:

تذهب المصادر إلى أنه توفي في التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة ٧٤٣هجرية، ويقول الصفدي أنه:"حضر دفنه والصلاة عليه(٢٩)"وهناك من يقول إنه توفي سنة٧٤٤هجرية. ولكن المؤرخين يختلفون في مكان وفاته بين القدس ومصر وبلاد الشام التي يرجح بعضهم أنه توفي فيها،ويذهب بعضهم الآخر إلى أن وفاته كانت في القاهرة.وبذلك تنتهي حياته الحافلة بالعطاء:شعرا ونثرا وتدريسا وتصنيفا في علوم الدين والعربية والتاريخ .

المبحث الثاني

شعره :

كان ابن عبد المجيد شاعرا مقلا،بل لم يكن من المشهورين في هذا الفن الجميل،وكانت المناسبات الرسمية هي التي تدفعه للتعبير عن مشاعر خاصة، تتيح له الحظوة عند الحاكمين ،وتكشف عن قدراته الفنية في أغراض المديح والتهنئة والوصف بخاصة وقد تدفعه مواقف أخرى إلى الذم والانتقاص،ولعل هذا الإقلال في عطائه الشعري يعود إلى :

١-انشغاله في التأليف والتدريس،إذ خلف لنا مجموعة طيبة من هذه المؤلفات اشرنا إليها في مكانها

٢-اهتمامه الكبير في الفن النثري الذي كان سببا في شهرته الأدبية ،وفي تبوئه المكانة الرفيعة في دواوين الكتابة في مصر واليمن،لان الكتابة في رأي السابقين"أشرف مراتب الدنيا بعد الخلافة ..."وهي بعد ذلك"زينة الدنيا التي إليها يتناهى الفضل وعندها تقف الرغبة..."(٣٠).

٣-أنه لم يكن ذا قريحة شعرية تعلو به إلى مصاف الشعراء الكبار الموهوبين ،فما خلفه من نصوص شعرية تضعه في صفوف الشعراء الكتاب والعلماء والفقهاء الذين يفتقر شعرهم في كثير

من الأحيان، إلى الإجادة الفنية والشعرية الأصيلة، ولذلك لم نجد المصادر اليمنية وغير اليمنية تشير إلى ديوان يجمع شعره ،ولكن هذا لايمنع من الوقوف بإيجاز عند الموضوعات الشعرية الآتية

المديح:

وكان فيه كالشعراء الآخرين متغنيا بفضائل الملوك ومنوها بميزاتهم المطلوبة:عدلا وسماحة وثباتا في وجوه الأعداء.ولعل صاحبنا لم يكن بحاجة لإراقة ماء وجهه طلبا للجائزة الملكية،إذ كانت مكانته في ديوان السلطنة تغنيه عن ذلك. فمن مديحه في السلطان الرسولي المؤيد في ثنايا وصفه لقصره الجديد قوله(٣١):

قصر بناه هزبر الدين مفتخرا فشاد ذلك بان أيما بان

فقف بساحته تنظربها عجبا كم راحة هطلت فيها بإحسان

سامى النجوم علوا فهي راجعة عن السمو لإيوان ابن غسان

فمعاني هذه الأبيات تقليدية، لأن المديح بالشجاعة وسعة العطاء كرره شعراء سابقون ومعاصرون له.فضلا عن أن الإشارة إلى أن أصول بني رسول تعود إلى الغساسنة مما كرره شعراء اليمن الآخرون.وله في مديح السلطان المؤيد من قصيدة تائية طويلة(٣٢) :

فلك به الملك المؤيد طالع كالشمس كاشفة دجى ظلماتها

فلك به الأفلاك جامدة على مجرى بما يختار من حركاتها

فالتشبيه بالفلك العالي والشمس المشرقة، مما أكثر الشعراء السابقون من تناوله في مدائحهم. ونشير هنا إلى اعتماده فن الطباق في سياق المديح وصولا إلى الموازنة بين الممدوح وغيره، كما في الجمود والحركة والشمس الكاشفة والظلمات/الدجى.ثم يقول فيه :(٣٣)

متعود بذل النوال لقاصد و النفس جارية على عاداتها

ايامه للقاصدين مواسم و بواسم عن فضلها وهباتها

ملك له في العلم اوفى غاية أربت على الاملاك في غاياتها

بذ الملوك ابوالمظفر في العلى لما علت هماته هماتها

حازت مناقبه شتات فضائل فلذاك أضحى جامعا لشتاتها

تلقى أعاديه كتائب جيشه و النصر معقود على راياتها

والتنويه بعطاء الممدوح وسماحة يده، معنى توارثه الشعراء، وليس لبعضهم فيه غير إعادة الصياغة وإجادتها إن استطاعوا مثل هذه الإجادة. وجميل هذا الجناس الرقيق بين مواسم وبواسم. فبه تلونت صورة هذه الأيام المعطاءة. وإذ أشارت المصادر اليمنية القديمة إلى عناية السلاطين الرسوليين بالعلم والعلماء، وميلهم إلى التأليف والعطاء الفكري؛ فإن ابن عبد المجيد لم يكن بعيدا عن حقيقة الثناء على ثقافة الممدوح وعلمه.واهتمام الشاعر بهذا اللون من صفات الممدوح، ناتج عن بعد حضاري يتمثل بتأثير الجانب الثقافي في أعماق الشاعر المادح. وقد أنهى قصيدته بالإشادة بشجاعة الممدوح وعظمة جيشه ،وما يحوزه من نصر ومناقب سامية تقدم فيها الملوك الآخرين. وتتضح في أبيات هذه القصيدة- وهي طويلة- انسيابية العرض، وترابط المعاني وجريانها في مجراها الكبير-المديح- فبعض أبياتها يكمل بعضا في محاولة لرسم الصورة المثالية للممدوح وهو ما دأب عليه الشعراء في مديحهم. ويبدو للدارس أن ابن عبد المجيد كان يعرف كيف يصطفي مفرداته التي تتلاءم والمعاني التي يريد التعبير عنها مثل: بذل النوال،النصر المعقود ،المناقب والفضائل ،كتائب الجيش...وقد تكررت المعاني في مديحه - كغيره من شعراء هذا الفن- كما في قوله:

في كل عود من سواجع طيرها عود يريك اللحن من نغماتها

فهو إعادة صياغة لقوله في قصيدته النونية (٣٤) :

هذا وكم فيه من ورقاء صادحة يغنيك عود لها عن ضرب عيدان

وكذلك الأمر عنده في الثناء على نسب بني رسول بأنهم من آل جفنة / الغساسنة

الوصف:

وهو غرض شعري واسع،ذو مفهوم عام يدخل في مجمل الأغراض الشعرية،ولعل هذا كان مراد ابن رشيق حين قال:"الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف"(٣٥).وهو ذو مفهوم خاص يراد به محاكاة الموصوف ومحاولة رسم صورة قريبة منه.ويكون التشبيه أداته البيانية الرئيسة التي تمكن الوصاف من إبداع الصورة ورسمها ،ملونة في كثير من الأحيان بألوان البديع المعروفة.وقد تفاوت الشعراء في درجة اهتمامهم بهذا الفن أو الإجادة فيه ،وكانت الطبيعة ومظاهر الحياة المصنوعة مدارا واسعا في هذا المجال .وكان بناء القصور مناسبة طيبة استغلها الشعراء لعرض قدراتهم التصويرية، وهو بعد ذلك وسيلة تهيئ لمديح الخلفاء والأمراء، وهو ماقرأناه في وصف القصور العباسية عند أبي نواس وأشجع السلمي على سبيل المثال.وفي اليمن-ومدينة تعز خاصة-بنى السلاطين الرسوليون الكثير من القصور التي انبرى الشعراء لتخليدها، والتفنن في وصفها باعتبارها مظهرا من مظاهر الحياة الحضرية بلونيها: المادي والمعنوي.من ذلك وصف الشعراء للقصر السلطاني المسمى(المعقلي)في ثعبات (من قصور مدينة تعز)ومنهم الشاعر عبد الله بن جعفر ومترجمنا عبد الباقي الذي قدم لوصف القصر بقوله(٣٦) :

دع رامة الوادي ودع سمراتها واترك بيوت الشعر في أبياتها

والحظ منازل آل جفنة في العلى من ارض صهلتها إلى ثعباتها

فهو يبدأ قصيدته بصيغة أمرية بذكر ديار رامة والسمرات التي تغنى بها الشعراء الغزلون من قبل، كما في قول الشاعر اليمني القاسم بن هتيمل (٦٩٦هجرية)متغنيا بمثل هذه المواضع النجدية في مفتتح قصيدة(٣٧):

إذا جئت الغضا - ولك السلامه - فصارح بالتحية ريم رامه

كما تغنى بها أبو الفضل الحاجري (٦٣٢هجرية)في مقدمة غزلية طريفة فقال (٣٨):

عرج برامة إن رامة منتهى أملي وغاية بغيتي ومرادي

فشاعرنا بعد هذه المقدمة ،ينتقل بالمتلقي سريعا إلى قصور بني رسول في ثعبات وصهلة وصالة، ليريه ملكا كبيرا، وأبنية شامخة تطاول بشرفاتها النجوم ،ويطلعه على جنان الأرض وما حوته من انهار جارية ،وثمار فواحة الأريج، وأزهار تشرق بكل لون، وهذه القصور تصطف ثابتة منتظمة كأنها المجرة في عليائها وهو ما نتأمله في قوله:

تجد القصور الشامخات على السها شرفا تريك العز في شرفاتها

تلك الجنان أما ترى أنهارها قداعربت بالطيب عن ثمراتها

تجلى زوا هرها و يشرق زهرها فكأنها الأقمار في هالاتها

مثل المجرة في انتظام قصورها أين المجرة من نما زهراتها ؟

برزت بها الأغصان شبه عرائس نظمت عقود الدر في آياتها

وإذا كان الخيال قد ذهب بالشاعر كل مذهب ،فإن المبالغة في ألوان رسومه واضحة؛ لأنها أداة من أدوات الشطح التصويري الذي يتخذ منه الشعراء مركبا لبلوغ الرسم الفني المطلوب، وان وجدنا الشاعر يميل إلى تخفيف هذه المبالغات باستعمال أدوات التشبيه (كأنها ، مثل ،شبه).هذا إلى جانب ميله إلى ألوان البديع في قوله مجانسا بين شرف وشرفات و زواهر و زهر . فضلا عن دقة اختياره للمفردات المتلائمة وفن الوصف مثل: الجنان ،عرائس الأغصان وهالات الأقمار. وعلى عادة بعض الشعراء اليمنيين، يقيم الشاعر هذه الموازنات بين القصور الرسولية وجناتها الخضر، وبين مواطن أخرى صور الشعراء السابقون جمال طبيعتها وربيع أيامها، فهو يشير إلى غوطة جلق في الشام وشعب بوَان في جنوب بلاد فارس فيقول :

ما شعب بوَان و غوطة جلق يوما بأزهى من بها غوطاتها

وليس بعيدا عن الذهن وصف المتنبي لشعب بوان في مطلع قصيدته النونية (٣٩):

مغاني الشعب طيبا بالمغاني بمنزلة الربيع من الزمان

وكثيرا ما يجمع عبد الباقي بين مديح السلطان ووصف القصر الذي يقيم فيه، كما في قصيدته النونية الطويلة التي افتتحها بصيغة ندائية قائلا :

يا ناظم الشعر في نعم ونعمان وذاكر العهد في لبنى ولبنان

ومعمل الفكر في ليلى و ليلتها بالسفح من عقدات الضال والبان

قصرفبالوادي من وادي زبيد علا عالي المنار عظيم القدر و الشان

والشاعر يحشد في البيتين الأولين ،ألوانا من الجناسات والمناظرات اللفظية التي تؤشر لمدى عنايته بهذه الألوان البديعية، وإن كانت هذه المفردات ودلالاتها الغزلية مما سبقه إليه الشعراء مثل : نعم ولبنى وليلى إذ صارت هذه رموزا خالدة لكل حبيبة على امتداد العصور، وكأنه يدعو الشعراء لأن يدعوا الغزل بمثل هؤلاء الحبيبات الحسان؛ ليكون تغزلهم أحلى وأجمل لو اصطنعوه في قصر السلطان، وما فيه من مظاهر الحضارة الرقيقة والصنعة الرائقة ، فكل ما سطره التاريخ عن هندسة وشموخ قصور الخورنق والسدير في الحيرة وغمدان في اليمن، والإيوان في المدائن وشهرتها، وما ضرب فيها من أمثال في السمو والعلاء، لايرقى إلى ما بلغه قصر الملك المؤيد في وادي زبيد من فخامة وعلو سامى به نجوم السماء، حتى لنجد الثريا تود لو أصبحت سراجا من سرجه المنيرة. وكأن الشاعر يتغزل بهذا البناء المنيف الذي تحفه الأزاهير بألوانها المختلفة :أبيضها وأحمرها فضلا عن افيائها الظليلة، ومائها السلس المتدفق فهو يقول :

به التغزل أحلى ما يرى لهجا فدع حديث ليلات بعسفان

هذا الخورنق بل هذا السدير أتى في قصر داود لا في قصر غمدان

أنسى بإيوانه كسرى فلا خبر من بعد ذلك من كسرى بإيوان

سامى النجوم علوا فهي راجعة عن السمو لإيوان ابن غسان

تود فيه الثريا لو بدت سرجا مثل الثريا به في بعض أركان

تحفه دوح زهر كله عجب كم فيه من فنن زاه بأفنان

من ابيض يقق حال باحمره يميس في حلتي در ومرجان

ظل ظليل و ماء سلسل غدق تخاله من صفاء بطن ثعبان

وقد يقول قائل:إن هذه اللقطات واللوحات الوصفية ،مما ألفنا تشبيهاتها عند الكثير من الشعراءالوصافين،نعم ولكن هذه وغيرها تبقى من حيث الصياغة والنسيج ،الألوان والخطوط التي لابد منها لكل مصور فنان، يريد أن يرسم صورة مثالية، فتعكس عدسته ما يراه ويتلذذ به من

مظاهر الطبيعة المصنوعة في ديار الملوك

الهجاء:

كان ابن عبد المجيد في مقام لايسمح له بتعاطي الهجاء والتعريض بالآخرين ،فضلا عما عرف عنه من شخصية علمية ونفس أبية .وإذ ينقلب به الزمان، ويغضب منه الملك المجاهد ويلاحقه ،يضطر للهروب من مدينة تعز إلى مدينة عدن، ويبدو انه لم يجد فيها من يؤيه ويعينه في محنته وظروفه القاسية هذه، وهي المدينة التي ذهبت بعض الروايات إلى انه ولد فيها. وهذا ما دفعه في ظرف نفسي صعب ،إلى أن يسخط على المدينة وأهلها فقال ذاما لها (٤٠) :

عدن إذا رمت المقام بربعها فلقد أقمت على لهيب الهاويه

بلد خلا من فاضل فصدوره أعجاز نخل إذ تراها خاويه

والشطرالاخيراقتباس واضح من الآية الكريمة :"...فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية" (٤١) فأهل عدن ساقطون في هاوية التخاذل وضعف المروءة، خائفون لايقدرون على حماية احد ،فكأنهم أصول النخل الخاوية المتهالكة التي لاتقوى على دعم لائذ، وإجابة عائذ .فضلا عن قوله الشعر في مواضيع أخرى كما في قوله متغزلا(٤٢) :

بخلت لواحظ من رأينا مقبلا برموزها ورموزهن سلام

فعذرت نرجس مقلتيه لأنه يخشى العذار لأنه نمام

وله ناصحا (٤٣):

تجنب أن تذم بك الليالي وحاول أن يذم لك الزمان

ولا تحفل إذا كملت ذاتا أصبت العز أم حصل الهوان

خصائص عامة:

ويظل ابن عبد المجيد ،واحدا من الشعراء الذين عنوا بوضوح في تحسين فنهم الشعري ،وتجويد نتاجهم دونما إسراف في تصنع الفنون البيانية والبديعية، إلا ما تطلبه المعنى وأملاه الطبع السليم، في كثير من الأحيان.وقد رأيناه ينحو نحوا تقليديا في بناء قصائده ،من حيث التزام المقدمة الغزلية دون إطالة؛إذ كانت هذه المقدمة -إلى حد كبير- تتوافق في عذوبتها وسلاستها مع أغراضه الرئيسة مديحا ووصفا...ويتبين القارئ هذا التلازم والتناسب ،في تخلص الشاعر إلى عرض ما يريد دونما انقطاع في المبنى والمعنى، وقد مرت أكثر من إشارة إلى طلبه المحسنات اللفظية والمعنوية

:كالطباق والجناس والتورية بشكل أوسع على عادة شعراء العصور المتأخرة .من ذلك هذه التورية الطريفة التي ارتجلها ببيتين شعريين حين زار الشيخ الشاعر جمال الدين بن نباته المصري(٧٦٨هجرية) الذي شكا إليه كثرة النمل في منزله فقال: (٤٤)

رأيت في منزل المولى الأديب به نمل تجمَع في حافاته زمرا

فقلت: لا تعجبوا من نمل صاحبه فالنمل من شأنها أن تتبع الشعرا

فالمعنى القريب في البيت:أن النمل من عادته أن يتبع الشعراء في دورهم ،ولكن المعنى البعيد هو الإشارة إلى سورتي النمل والشعراء في القرآن الكريم، فالسورة الأولى تتبع الثانية في تسلسلها القرآني .ولكنه -كغيره من الشعراء- ينقاد الى المبالغة في معارض مديحه للملوك، كما في قوله وقد ركب الملك المؤيد داود فيلا:(٤٥)

الله أولاك يا داود مكرمة ومعجزا ما أتاها قط سلطان

ركبت فيلا فظل الفيل في رهج مستبشرا وهو بالسلطان فرحان

لك الإله أذل الوحش اجمعه هل أنت داود فيها أم سليمان ؟

فالشاعر يعلم أن ركوب الفيلة أمر معروف وليس بمعجزة منذ قرون ،وخاصة في الحروب وساعات النزهة، وان تصوير الفيل بالفرح المستبشر لأنه يحمل ملكا،تشكيل سطحي غالى فيه ابن عبد المجيد ،ولعله قال ما قال وصولا لعقد هذه المشابه بين سلطان الملك داود وما اوتيه النبي سليمان من عز وملك، وهي مقابلة تكررت عنده كما في قوله :

كأن بنيان داود وبهجته صرح القوارير من آرا سليمان

وليس بعيدا أن يكون الشاعر أراد التورية في لفظة داود، فالمعنى القريب هو اسم السلطان الممدوح ،وقد يكون المعنى البعيد المراد هو اسم النبي داود مقرونا باسم ابنه النبي سليمان، فكأننا بالشاعر يرقى بمقام السلطان مغاليا إلى مصاف الأنبياء، وما اوتوه من قدرات ومعجزات.ولأن القرآن الكريم واحد من ابرز مقوماته الثقافية فقد نهل منه ما شاء و(صرح القوارير)في البيت المتقدم اخذ واضح من الحديث القرآني عن قصر سليمان حين دخلته الملكة بلقيس إذ قال تعالى عنه(٤٦):"...قال إنه صرح ممرد من قوارير..."ومما استوحاه من القرآن الكريم قوله في وصف حديقة :

فالسنبل الغض والورد الطري معا من اخضر ناصع أو احمر قان

صنوان خصت به من كل فاكهة وكم رأى مجتليه غير صنوان

فنظره قريب كل القرب من الآية الكريمة(٤٧):"وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان..."وفي هذا وغيره دلالة أكيدة على كثرة ما كان ينهله من معاني القرآن الكريم وألفاظه ويفيد من آياته . وعلى الرغم مما قلناه عن انسيابية بنائه الشعري

وعنايته بأنغامه، فإننا نجده ينحو منحى نثريا في بعض نسيجه الشعري كما في قوله يصف قصر الملك داود :

توافق الناس في أوصافه فلذا لم يختلف قط في أوصافه اثنان

والشطر الثاني بخاصة مما يتداوله المتكلمون في ثنايا حديثهم اليومي . فضلا عن إكثاره من بعض المفردات التي تقود صياغته إلى النثرية والتقريرية مثل: فلذا، لما ، فلذاك ، قط ،هذا وكم . وكم الخبرية هذه كررها في معرض وصفه في قصيدته النونية أكثر من خمس مرات، متخذا منها وسيلة لتكثيف المعنى وتكثيره وصولا إلى شيء من المبالغة في الخيال والتصوير المعنوي. وهذا الذي تقدم يعني أن ابن عبد المجيد مال إلى الاعتدال- إلى حد كبير - في صنعته الشعرية من حيث بناء القصيدة والجمع فيها بين أكثر من غرض شعري، مكثرا من توظيف الدلالات التاريخية في شعره وهو ما اشرنا إليه في مواضعه، وذلك اثر من آثار ثقافته الواسعة وعلومه المتنوعة.

المبحث الثالث

نثره :

هيأت عوامل كثيرة للنشاط النثري في العصر الوسيط، واتسع عطاء الكتاب فيه. إذ أفاد هؤلاء الكتاب من التراث النثري المتنوع الذي خلفه لهم المتقدمون في العصور الإسلامية المختلفة ،إلى جانب الدرس القرآني البليغ والحديث النبوي الشريف، اللذين ظلا على امتداد الزمن منهلين عذبين يمدانهم بالفكرة والمعنى والنظم الكلامي الرصين. وكان من الطبيعي أن يزدهر فن الرسائل بألوانه المختلفة : الديواني والأدبي والإخواني . إذ فتحت دواوين الملوك والأمراء المجالات الرحبة أمام الكتاب النابهين للتعبير عن مختلف القضايا السياسية والإدارية وغيرها .وكان عبد الباقي بن عبد المجيد من ابرز كتاب الدواوين في هذا العصر؛ لما امتلكه من خط حسن وبلاغة تعبير ومقدرة بيانية، رفعت مقامه لدى سلطان اليمن والخليفة العباسي المستكفي بالله في مصر(٤٨).ومن مشهور ماكتبه لهذا الخليفة رسالته إلى سلطان اليمن الرسولي حين منع هذا الأخير الهدية التي جرت العادة بإرسالها إلى الأبواب الشريفة بالديار المصرية ،وقد افتتحها بقوله تعالى(٤٩):"يا أيها الذين امنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم).ثم قال:"من عبد الله ووليه أبي الربيع سليمان...أما بعد حمد الله ،مانح القلوب السليمة هداها ،ومرشد العقول إلى أمر معادها ومبتداها ،وموفق من اختاره إلى محجة صواب لايضل سالكها ،ولا تظلم عند اختلاف الأمور العظام مسالكها ،وملهم من اصطفاه اقتفاء آثار السنن النبوية ،والعمل بموجب القواعد الشرعية ،والانتظام في سلك من طوقته الخلافة عقودها ،وأفاضت على سدته الجليلة برودها، وملكته أقاصي البلاد وناطت بأحكامه السديدة أمور العباد...يحمده المؤمنون على أن جعل أمور الخلافة ببني العباس منوطة، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم القيامة محوطة." وإذ ينتهي من هذا التحميد المسجوع الذي امتد عشرة اسطر،ينتقل إلى الصلاة على ابن عمه محمد عليه الصلاة والسلام فيقول :"الذي اخمد الله بمبعثه ما ثار من الفتن ،وأطفأ برسالته ما اضطرم من نار الإحن" ثم يتحدث عن الدين الإسلامي الهادي حتى يصل إلى قوله بأن الله:"قلدنا من أمر الخلافة سيفا طال نجاده ،وكثر أعوانه و أنجاده، وفوض إلينا

أمر الممالك الإسلامية ،فإلى حرمنا تجبى ثمراتها ،ويرفع إلى ديواننا العزيز نفيها وإثباتها... وألبسنا خلعة هي من سواد السؤدد مصبوغة، ومن سواد العيون وسويداوات القلوب مصوغة" ويفصل القول في شؤون الممالك الإسلامية التي فوض أمرها إلى السلطان الناصر محمد (صاحب السلطة الفعلية)والى رجالها الفرسان الذين "لا يعرفون طربا إلا ما أصدره صليل الحسام من غنا،ولا ينزلون قفرا إلا وانبت ساعة نزولهم عن صهوات خيلهم قنا" وينتهي إلى موضوع رسالته إلى الملك المؤيد- ولد السلطان الملك المظفر- والتي كما يقول:" أصدرناها إلى الرحاب التعزية، والمعالم اليمنية ،تشعر من تولى فيها فاستبد ،وتولى كبره فلم يعرج على احد، أن أمر اليمن مابرحت حكامنا ونوابنا تحكم فيه بالولاية الصحيحة ،والتفويضات التي هي غير جريحة. ومازالت تحمل إلى بيت المال المعمور تمشي به الجمال وئيدا" ثم يشير إلى أن السلطان اليمني"قطع الميرة عن البيت الحرام" وهو واد غير ذي زرع، منفقا المال في شراء لهو الحديث، وانه نقض العهود القديمة ،وعطل المنابر عن ذكر اسم الخليفة العباسي ،ثم يتهدده...قائلا:"السيف يود لو سبق القلم حده، والعلم المنصور يحب لو فات القلم واهتز بتلك الروابي قده... وما عمدنا إلى مكاتبتك إلا للإنذار،وما جنحنا لمخاطبتك إلا للإعذار ، فأقلع عما أنت بصدده من الخيلاء والإعجاب" إلى أن يقول:" واشرط على نفسك في كل سنة قطيعة ترفعها إلى بيت المال ،وإياك ثم إياك أن تكون عن هذا الأمر ممن مال" وينهي هذه الرسالة التي امتدت سبع صفحات ،والتي كتبها سنة ٧٠٧هجرية إلى القول:" وان أبى حالك إلا استمررت على غيك، واستمرأت مرعى بغيك ،فقد منعناك التصرف في البلاد ،والنظر في أحكام العباد ،حتى تطأ خيلنا العتاق مشمخرات حصونك، وتعجل حينئذ ساعة منونك...فلا تكن كالصغير،مزيده كثرة التحريك نوما، ولا ممن غره الإمهال يوما فيوما ،وقد أعلمناك ذلك فإعمل بمقتضاه ،موفقا إن شاء الله تعالى ،والحمد لله وحده." والرسالة طويلة؛ لأنها ذات أفكار متعددة؛ولأن الكاتب أراد أن يكون واضح المراد،فعمد إلى تفصيل القول، ليضع السلطان اليمني أمام الواقع والوقائع .وبذلك بلغ الغاية المرجوة من هذا الكتاب الديواني، إذ عرض مضمونه بلغة سليمة متينة ،وأسلوب قامت أركانه على صياغة الجملة الطويلة التي نهضت ببيان المعاني الغزيرة ،التي تدفقت في نظم نثري متلازم البناء ،دون أن تضيع أفكاره في سجع ثقيل ،أو بديع متكلف، إلا ما جاء به لتحسين الصياغة وتجويد الأسلوب. وبين أن أفكاره لم تخل من التلميح إلى شيء من ثراء تراثي تختزنه حافظته، كالآيات القرآنية والشعر كما في إشارته - وهو يتحدث عما يحمل إلى بيت المال - إلى البيت الشعري المشهور:(٥٠)

ما للجمال مشيها وئيدا أجندلا يحملن أم حديدا؟

وهو بيت أنشدته الملكة الزباء حين رأت قافلة جمال تحتضن من سعوا إلى إنهاء ملكها – حسب الرواية العربية – وهي تسير متثاقلة فقالت :" إنها لتحمل صخرا وتطأ في وحل". وواضح كذلك انه يستعين بالآية الكريمة في سورة إبراهيم:" ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم..." وبالآية الكريمة في سورة الرحمن:" وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام" حين يصف بعض الكتائب فيقول:" والجواري المنشآت قد تكونت من ليل ونهار". ولعله استوحى

في قوله :" والانتظام في سلك من طوقته الخلافة عقودها " قول الشريف الرضي مخاطبا الخليفة العباسي في بغداد:(٥١)

ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبدا ، كلانا في المعالي معرق

إلا الخلافة ميزتك فإنني أنا عاطل منها و أنت مطوق

وهكذا نجده متأنقا في تعبيره، متفننا في اقتباس الصور القرآنية والشعرية ،كما نجد لثقافته اللغوية أثرها في اختيار بعض المصطلحات النحوية؛ للتعبير عن بعض معانيه كما في قوله:(نفيها وإثباتها). والجناس والطباق من ابرز المحسنات البديعية التي زين بها شكل رسالته ومضمونها، وهي كثيرة بينة لا تحتاج إلى إشارة. وقد ظل الكاتب بعيدا عن" الإسراف في الاستعارات والتشبيهات ومختلف الصور البيانية ،والإغراق في المجاز وحل الشعر والاستعانة بالآيات والأحاديث ومأثور الكلام من أقوال البلغاء السابقين"(٥٢) . وكتب ابن عبد المجيد ما نذهب إلى انه رسالة أدبية على لسان طفيلي يوصي ابنه، ويلقنه أسرار المهنة وطرائق حضور المآدب والولائم، وما يجب أن يتميز به من خلق حسن، وتعامل مناسب في الظروف المختلفة. وقد تجاوز ما كتبه ثلاث صفحات ، بدأه بقوله :" هذا عهد عهده زارد ابن لاقم ،لبالع ابن هاجم، استفتحه بأن قال: الحمد لله مسهل أوقات اللذات وميسرها ،وناظم أسباب الخيرات ومكثرها، وجاعل أسواق الأفراح قائمة على ساق، جابرة لمن ورد إليها بأنواع الإرفاد وأجناس الإرفاق ، احمده على أن أحلنا في منازل السادات ارفع الدرجات ، واحل لنا من الأطعمة الفائقة الطيبات ". وبعد أن يتم حمد الله والصلاة على نبيه يقول:" وبعد ،فان صناعة التطفيل صناعة موهوبة ،وحرفة هي عند الظرفاء محبوبة، لا يلبس شعارها إلا مقدام، ولا يرفع خافق علمها إلا من عدَ في حرفته من الأعلام...وكنت والفود غدافي الإهاب، والغصن ريان من ماء الشباب، والقد يميس في حالة النشاط ،والقدم تذرع الأرض ذرع الاختباط ، لا يقام سوق وليمة إلا وأنا الساعي إليها ،ولا ترفع أعلام نار مأدبة ،إلا وكنت الواقف لديها ، فحيث عبقت روائح الأبازير من أعالي تلك القصور، وتمندلت تلك الشوارع بزعفران البرم والقدور،ألقيت عصا المسير على الباب، وخلبت بحسن أدبي قلب البواب...". وإذ لايفوته حضور الولائم والدعوات على اختلافها : ختانا أوعرسا أو ضيافة، فإن قول القائل يحسن فيه :

لو طبخت قدر بمطمورة موقدها الشام وأعلى الثغور

وأنت في الصين لوافيتها يا عالم الغيب بما في القدور

واليوم قد مال القويم إلى الاعوجاج ،وعزَ بازي الشيب غراب الشعر الداج ،وقيد الزمن أقداما ومنعت الشيخوخة إقداما، وصرت لحما على وضم ،بعد أن كنت نارا على علم...وقد اقتضى حسن الرأي أن أفوض إليك أمرها ،وأودع تأمور قلبك وحسك سرها،علمي بأنك الكيس الفطن،بل الألمعي الذرب المرن...وقد شاهدت من أعمالك الصالحة ما يقال فيه عند ذهابي:(ما أشبه الليلة بالبارحة) وقد عهدت إليك واستخرت الله في التعويل عليك.ويواصل الأب الشيخ وصاياه لابنه قائلا:"إياك وموائد اللئام ،وانزل بساحات الكرام ،اقصد الأبواب العالية والأكلة المنقوشة الحالية ،البس من

ثيابك الجميلة قشيبها ،وضوع بالمندل الرطب طيبها".ثم يوصيه بان يدخل مع الداخلين متقدما رافع الستور،"فالأضياف يعتقدون انك غلام مضياف ،ورب الحلة يعتقد أنك رفيق السادة الجلة" ومن وصاياه له : أن يلج على غفلة من الرقيب، ويحذره من الإطالة على الموائد، وان يكبر اللقمة ولا يطيل العلك،وان يتفقد:" الأسواق، خصوصا اللحامين ومواطن الطبخ ومساطب المطربين ومجمع القراء ومعاهد محال الوعاظ وكل بقعة هي مظنة فرح..." ثم يقول له :" نقَّل ركابك في كل يوم ، فتارة في سوق اللحم وتارة في سوق الثوم، وغيَر الحلية وقصر اللحية ، وابرز في كل يوم في لباس ، فهو أكثر للالتباس...وأتقن الفنون التي تحتاج إليها من غناء ونخامة وطب وشهامة، وتاريخ وأدب وكرم وأصل وحسب..." ولأن الأب قد تمثل بشائر ابنه ،فإنه يلقي إليه كتاب العهد بالتطفيل ،ويحمل لبابه راية مجده، ويفوض له أمر أن يعهد بها من بعده ،لمن يملك الخصال ويتقن الأحوال . وجملة أمور ترجح أن النص المتقدم قريب من مقامة عبر فيها الكاتب تعبيرا مباشرا عن موضوع اجتماعي، ارتبط بتردي الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي دفعت بطائفة من الناس أن يفرضوا نفوسهم على موائد الآخرين، بأساليب تقوم على المخادعة والتحايل. فالموضوع من مقدمته إلى خاتمته لون من أدب الشحاذة الذي يصور جانبا من حياة الناس في أخلاقهم وضروب عيشهم . وإذا كان الكاتب قد ابتعد عن الرواية والحبكة القصصية التي ميزت مقامات القرن الرابع الهجري وما بعده ،فإن لوحاته الوصفية غير منقطعة الأواصر عن السرد التفصيلي القائم على دقة التصوير وترابط الأفكار، مع المحافظة على الشكل المسجوع ،وإحسان العرض وسلاسته من خلال توازن الجمل وتحقيق الإيقاع الداخلي لها ،وتزيينها بألوان البديع من طباق وجناس تام وناقص . فضلا عن تقرير المعاني من خلال الإشارة إلى تراث شعري أو قول مأثور فقوله :"بعد أن كنت نارا على علم" إعادة صياغة لقول الخنساء ترثي أخاها صخرا: (٥٣)

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وقوله :" ما أشبه الليلة بالبارحة " مثل يضرب في تشابه الشيئين، وهو عجز بيت لطرفة بن العبد صدره : كلهم أروغ من ثعلب (٥٤) . وربما كان هذا النص الأدبي وليد اهتمامه بتدريس فن المقامات . ولكن ابن عبد المجيد لم يكن سبَاقا إلى مثل هذا النص الهزلي الفكه ،سواء في موضوعه أم طريقة عرضه أم نوع المفردات التي انتقاها ،فلأبي إسحاق الصابي الكاتب الشاعر(٣٨٤هجرية) رسالة في التطفل بدأها بقوله:" هذا ما عهد به علي ابن احمد المعروف بعليكا إلى علي بن عرس الموصلي حين استخلفه على إحياء سنته، وحفظ رسومه من التطفل، وهو يسرد عليه وصاياه بشكل أوامر يجب إتباعها .ولكن المتأمل في كلتيهما يجد أن وحدة الموضوع تجمعهما وكثيرا من المعاني توصل بينهما ،وكلا الكاتبين يوصيان خلفيهما بارتياد الأسواق لمعرفة مواطن الطعام وأوقات مد الموائد ومناسباتها، فضلا عن الوصية بمصاحبة رؤساء الخدم والبوابين وأهل الطرب من المغنيات والمغنين، ولكن الصابي اهتم بدءا بالحديث عن معنى (التطفيل)لغويا وانه جرى في هذا العهد على نمط العهود السلطانية ، فبدأ بعرض خصائص المعهود إليه ،والمهمات التي كتب من اجلها العهد وذهب د. زكي مبارك إلى القول:"بأن الكتاب راحوا يعمدون للكتابة في فن الفكاهة التي صارت من فنون القول"(٥٥). وإذا كان د.شوقي ضيف قد ذهب إلى أن عهد الصابي "بديع وهو يصور حياة

المتطفلين المتسكعين ببغداد..."(٥٦) . فإن عهد كاتبنا لا يخلو من طرافة، وحسن عرض وإحاطة بجوانب الموضوع وثناياه ،وانه يصور جانبا من حياة أهل الكدية والمتطفلين في كل مواطنهم. وأخيرا فقد يلتقي الخيال بالخيال والفكر بالفكر دون أن يكون بين المبدعين لقاء ، وليس من غرابة ما، فلم يكن ابن عبد المجيد بعيدا عما يكتب في إذا ما جارى اللاحق السابق في موضوع بغداد وغير بغداد من شعر ونثر .

المناظرات والمفاخرات :

وأدب المحاورة والمناظرة قديم ،ولكنه اخذ في العصر الوسيط بعدا وانتشارا واسعا، فشاعت المفاخرات والمناظرات التي عقدها الأدباء بين المدن والبلدان، والنبات والحيوان والسيف والقلم والمساجد، وبين أنواع الورود والأزهار، فضلا عن ألوان أخرى، وذلك ما نقرؤه في نثر الشام والعراق واليمن وغيرها . وكانت لكاتبنا مشاركته في هذا المحور النثري الطريف، ومن ذلك هذه المناظرة التي عقدها بين الشمعدان والقنديل فقال مبتدئا:"الحمد لله الذي أنار حالك الظلماء ،بأنوار بدر السماء ،وحلى جيدها بعقود النجوم، وحرس مشيدها بسهام الرجوم ،وجعلها عبرة للاستبصار ونزهة للأبصار...وبعد، فإن فنون الآداب كثيرة الشعوب، متباينة الأسلوب،طالما تلاعب الأديب بفنونها بين جد ومجون، وكيف لا والحديث ذو شجون، وكنت بحمد الله ممن هو قادر على إبراز ملح الأدب ،وعلى إظهار لطائف لغة العرب، فتمثل في خاطري المفاخرة بين الشمعدان والقنديل ، ولابد من إبراز المفاخرة بينهما في أحسن تمثيل، لأنهما آلتا نور ونديما سرور، طالما مزَقا جلباب الدجى بأضوائهما، وحسما مادة الظلمة بأنوارهما...فأحببت أن أنظمها في ميدان المناظرة، ليبرز كل واحد منهما خصائصه الواضحة، ويظهر نقائص صاحبه الفاضحة. أتلع الشمعدان جيده للمطاولة ، وعرض سمهريه اللجيني للمناضلة ، وقال مخاطبا القنديل :(استتنت الفصال حتى القرعى) لست بنديم الملوك في المجالس ،كلا ولا الروضة الغنَاء للمجالس، طالما أحدقت بي عساكر النظار،ووقفت في استحسان هياكلي رؤية الأبصار، وحملت على الرؤوس إذ علقت بآذانك ، وجليت كجلاء المرهفات ، إذ اسود وجهك من دخانك. فقال القنديل: إن كان فخرك بمجالسة السلاطين، فافتخاري بمجالسة أهل الدين، طالما طلعت في أفق المحراب نجما، ازداد علا وازدانت الأماكن المقدسة بشموس أنواري حلا...ولقد علوتك في المجالس زمانا، ومن صبر على مشقة الحر ارتفع مكانا. فقال الشمعدان :أين ثمنك من ثمني ،ومسكنك من مسكني ،صفائحي صفحات الإبريز،فلذا سموت عليك بالتبريز،تتنزه العيون في خمائلي الذهبية، وتسر النفوس ببزوغ أنواري الشمسية .فالتفت القنديل وقال :أنت عندي كثعالة لا محالة ، طالك العنقود ،فأبرزت أنواع الحقود ،وأين الثريا من يد المتناول؟ أم أين السها من كف المتطاول؟فقال الشمعدان :إن افتخارك بالعلو غير مفيد،ومزية اختصاصك به ليس له أبهة مزيد، طالما علا القتام وانحط الفرسان ،ومكث الجمر وسما الدخان...فعندها قال القنديل:لقد أطلت الافتخار بمحاسن غيرك، لما وقفت في المناظرة ركائب سيرك، فاشكر اليد البيضاء من شمعك، واحرص على معرفة قيمتك ووضعك...تخالني درة علقت في الهواء، وكوكبا من بعض كواكب الجوزاء:

قنديلنا فاق بأنواره نور رياض لم تزل مزهره

ذبالة فيه إذا أوقدت حكت بحسن الوضع نيلوفره

فحار الشمعدان في الجواب،وجعل ما أبداه أولا فصل الخطاب،فقال القنديل:لابد من الإقرار بان قدحي المعلى،واني عليك بالتقديم أولى ،وان مقامي العالي ونوري المتوالي.فقال الشمعدان:لا منازعة فيما جاء به الكتاب من تفضيلك،وكونك الكوكب الدري الذي قصر عن بلوغه باع مثيلك...وشرع يبدي شرائع الخضوع، وينشر أعلام الألوية عما قال والرجوع، وقال:ولكن أين صفاؤك من كدري؟ وأين نظرك من نظري؟خصك الله بنوره وذكرك في فرقانه وزبوره .فعندها تهللت أسارير القنديل،وتبسم فرحا بالتعظيم والتحصيل...وقال: أن اللائق بحالنا طي بساط المنافسة،وإخماد شرر المقايسة،والاستغفار فيما فرط من كلامنا ،والرجوع إلى الله في إصلاح أقوالنا وأفعالنا ،ونقول: الأصل فيما نقلناه عدمه ، فقد خفى كل واحد منا في إبراز معايبه قلمه، ونسأل الله أن تدوم لنا نعمه ، ويتعاهدنا في المساء والصباح كرمه،بمنه وجوده وكرمه آمين"(٥٧).

والمتأمل في النص- وهو طويل اخترنا مقتطفات منه- يجده مبنيا على الموازنة بين طرفين متقاربين في المفهوم والدلالة، وأن الكاتب جرد من نفسه متحاورين ؛ليضفي على النص حيوية وحركة تكشف في أسلوب متبادل الأداء، فضائل الاثنين وعيوبهما.وهي طريقة في التعبير تظهر مهارة المؤلف واقتداره في هذا الفن.وهو أسلوب سبق أن اعتمده الجاحظ في مناظراته الكثيرة.والنص من الناحية الفنية ذو بناء مسبوك بدأه الكاتب بمقدمة مناسبة لموضوعه، إذ تحدث عن أنوار السماء: بدرها ونجومها ؛ليخرج من ذلك لعقد المناظرة بين آلتي إضاءة ،كان الأقدمون يمزقون بهما ظلمة الليل ودجاه .وهو بعد ذلك يعتمد السجع في أسلوبه طلبا للإيقاع والتأثير، فضلا عن ألوان أخرى من البديع كالجناس والطباق يوظفها لتقوية البناء والمعنى، إلى جانب اعتماده الجملة الطويلة تارة والقصيرة تارة أخرى؛ للوفاء بالمعاني التي أفاد فيها الكاتب من العطاء القرآني، والشعري والمثل العربي؛ توضيحا للفكرة وتعميقا لها.ولأن الكاتب أراد أن يظهر غناه اللغوي، فقد عمد إلى توظيف مجموعة من المفردات والأمثال التي تحتاج إلى شرح وبيان كما في قوله على لسان الشمعدان : "استنت الفصال حتى القرعى" وهو مثل يضرب للرجل يفعل ما ليس له بأهل . ومنه المثل:"الحديث ذو شجون" ويضرب للرجل يكون في أمر فيأتي أمر آخر فيشغله عنه. وتبقى مفرداته بشكل عام بعيدة عن الإغراب والغموض .ويظل لطبيعة الموضوع الذي يكتب فيه المبدعون أثره في اختيار لغة التعبير المناسبة؛ لتكون الأداة الدالة التي تمهد للمتلقي فهم النص دون وعورة في اللفظ أو تعقيد في المعنى. وبعد، فلعل هذا البحث رسم صورة قريبة لهذا الأديب العربي، الذي يظل تراثه بحاجة إلى الدرس والتحقيق.

المصادر والمراجع والهوامش:

(١)فوات الوفيات لمحمد ابن شاكر الكتبي ط. دار الكتب العلمية / بيروت ٢٤٦/٢ والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع لمحمد بن علي الشوكاني ط. دار المعرفة / بيروت ٣١٨/١

(٢)الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي تحقيق روزنثال ط.دار الكتب العلمية/بيروت٢٧٥

(٣)البدر الطالع ٣١٨/١ ، فوات الوفيات ٢٤٦/٢

(٤)العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين تقي الدين الفاسي ط.مؤسسة الرسالة/بيروت ٣٢٣/٥

(٥)العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية لأبي الحسن الخزرجي ط.دار الآداب/بيروت ٢٩٩/١٩٨٣،١

(٦)المصدر نفسه ٣٤٢/١

(٧)الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة للعسقلاني ط.دار الجيل شركة الصناعة السعودية ٤٢٥/٢

(٨)فوات الوفيات ٢٤٦/٢

(٩)الدرر الكامنة ٣١٥/٢

(١٠)أعيان العصر وأعوان النصر صلاح الدين الصفدي ١٢/٣

(١١)العقد الثمين ٣٢١/٥

(١٢)شذرات الذهب في أخبار من ذهب ابن العماد الحنبلي ط.دار الكتب العلمية ١٣٨/٦

(١٣)الدرر الكامنة ٣١٧/٢

(١٤)العقود اللؤلؤية ٣٤٢/١

(١٥)المصدر نفسه ٢٣٩/١، ١٣/٢-١٥-١٦

(١٦)نهاية الإرب في فنون الأدب للنويري ط.دار الكتب المصرية ١٤٩/٨

(١٧)ينظر في شيوخه: الدرر الكامنة ٣١٧/٢-٣١٨، شذرات الذهب ١٤٥/٦، إشارة التعيين ٢٤

(١٨)ينظر في تلاميذه: البدر الطالع ٢١٢/١، شذرات الذهب ١٥٣/٦

(١٩)ينظر في مؤلفاته: الدرر الكامنة ٤٢٣/٢، شذرات الذهب ١٣٨/٦،البدر الطالع ٣١٨/١،الإعلان بالتوبيخ ٢٩٩،مجلة الحكمة اليمنية يونية ١٩٨٥العدد ١٢٢ ص٩،نت موقع مكتبة الملك فهد الوطنية وموقع جامع البحوث والرسائل العلمية

(٢٠)يذكر النويري أن عبد الباقي نقل بعض مواد كتابه(بهجة الزمن) من كتاب(المفيد في أخبار صنعاء وزبيد) لعمارة اليمن

(٢١)الإعلان بالتوبيخ ٢٩٩

(٢٢) نهاية الإرب ١٤٩/٨

(٢٣)شرح عقود الجمان في نظم علوم المعاني والبديع والبيان للسيوطي ط.القاهرة ٧٥

(٢٤)المائدة من الآية ٣

(٢٥)العمدة لابن رشيق القيرواني ط.السعادة بمصر ٥٠/٢

(٢٦)ديوانه ط.دار صادر٤٤٤

(٢٧)العمدة ٥١/٢

(٢٨)مجلة الحكمة اليمنية العدد ١٢٢ الصفحة الخامسة وما بعدها

(٢٩)الشذرات ١٣٨/٦، البدر الطالع ٣١٨/١، الدرر الكامنة ٤٢٣/٢

(٣٠)العقد الفريد لابن عبد ربه ت.احمد أمين وآخرين ط.لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٧٩/٤

(٣١)العقود اللؤلؤية ٣٤٣/١

(٣٢)(٣٣)المصدر نفسه ٣١٣/١

(٣٤)المصدر نفسه ٣٤٣/١

(٣٥)العمدة ٢٨٤/٢

(٣٦)العقود اللؤلؤية ٣١٢/١

(٣٧)عصر الدول والإمارات د.شوقي ضيف ط.دار المعارف ١١٦/٥

(٣٨)المرجع نفسه ٣٩١/٥

(٣٩)ديوانه٥٤١

(٤٠)الدرر الكامنة ٤٢٤/٢ وينظر البيتان في فوات الوفيات كذلك

(٤١)سورة الحاقة من الآية ٧

(٤٢)الدرر الكامنة ٤٢٤/٢

(٤٣)المصدر نفسه ٤٢٣/٢، البدر الطالع ٣١٨/١

(٤٤)مجلة الحكمة اليمنية العدد ١٢٢ ص ٩

(٤٥)العقود اللؤلؤية ٣١٤/١

(٤٦)سورة النمل من الآية ٤٤

(٤٧)سورة الرعد من الآية ٤

(٤٨)بعد أن استولى الظاهر بيبرس على الحكم في مصر سنة ٦٥٨هجرية استقدم من دمشق احد أبناء الخليفة العباسي الظاهر وبايعه بالخلافة وظل هو الحاكم الفعلي وتنظر الرسالة في نهاية الإرب ١٥٨/٨ ،صبح الأعشى للقلقشندي مطابع كوستاتسوماس القاهرة ٦ / ٤٢٢

مشمخرات : متكبرات ومتعاليات المشي الوئيد:المتمهل والمتأني

(٤٩)سورة النساء من الآية ٥٩

(٥٠)جمهرة الأمثال للعسكري ط.المكتبة العصرية بيروت ٢٠٢/١

(٥١)ديوان الشريف الرضي ط. بيروت ٥٤٤/٢

(٥٢)الأدب في العصر المملوكي د.محمد زغلول سلام نشر منشأة المعارف بالإسكندرية ٤٩٨/٢

(٥٣)ديوان الخنساء ط.دار الأندلس/ بيروت ٥١

(٥٤)جمهرة الأمثال ١٩٩/٢

(٥٥)النثر الفني في القرن الرابع الهجري د.زكي مبارك ط.السعادة بمصر ١٤٦/١

(٥٦)عصر الدول والإمارات ٤٤٧/٥

(٥٧)زهر الجنان في المفاخرة بين القنديل والشمعدان لعبد الباقي اليماني

الفود : جانب الرأس مما يلي الأذنين إلى الأمام . الغدافي : الشعر الطويل الأسود . الابازير : ما يطيَب به الطعام . البرم : القدور من الحجر . تمندل : تطيب بالرائحة العطرة . الوضم : خشبة الجزار .

التامور : وعاء القلب ودمه . النخامة : إجادة الغناء . الطب : الإرادة والتأني . استنت الفصال:ركض ولد الناقة من النشاط النيلوفر : ضرب من النبات ينبت في المياه الراكده بنفسجي الزهر.

Abstract

This paper aims to introduce a distinguished scholar in literature, language, rhetoric and history in the 8th centry of the Hijra . He was a brilliant Yemeni man of letters who aspired to seek knowledge from its sources and to have a full control of it. His cultural background is represented by the Glorious Quran and Arabic and Islamic heritage in the domains of poetry, prose and proverbs. He was well praised by many historians and scholars for he has contributed a lot in enhancing and enriching the Arab library, besides doing some teaching in some Arab countries. He was an illuminating landmark in the march of intellectual writings in the Middle Ages. That is obvious from his poetic texts, administrative and literary letters, and prosaic debates which all have given him a well- deserved place among other men of letters, historians and linguists.